

فبهداهم اقتله

obeikandi.com

فبهذا هم اقتده

مواقف أهل الإيمان في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضاربة في أعماق الزمن . . ومواكب النور لهذا الدين الواحد لها جذورها الراسخة منذ القدم وهذه قطوف من بساتين الصالحين قبل بعثة الحبيب ﷺ .

* مؤمن آل يس :

قصّ الله علينا في سورة يس موقف أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون وكيف كذبوا المرسلين الثلاثة، وكيف أخذتهم العزة بالإثم، وكيف عمد هؤلاء المكذبون الضالون إلى الأسلوب الغليظ العنيف - فالباطل على مدار التاريخ ضيق الصدر عرييد - وأسفر الباطل عن غشمه، وأطلق على الهداة المرسلين تهديده؛ وبغى في وجه كلمة الحق الهادئة الراسخة، وكيف عربد في التعبير والتفكير ﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

يرجموهم لأنهم بالله ذكروهم!! قلوب ميتة ختم الله عليها وطبع .
وهناك على الطرف الآخر قلب خشع للرحمن ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مِنْ لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ ﴾ [يس: ٢٠-٢٥] .

إنها استجابة الفطرة السليمة لدعوة الحق المستقيمة، فيها الصدق، والبساطة، والحرارة، واستقامة الإدراك وتلبية الإيقاع القوي للحق المبين فهذا رجل سمع الدعوة فاستجاب لها بعد ما رأى فيها من دلائل الحق ما يتحدث

عنه في مقاله لقومه، وحينما استشعر قلبه حقيقة الإيمان تحركت هذه الحقيقة في ضميره فلم يطق عليها سكوتاً؛ ولم يقبع في داره بعقيدته وهو يرى الضلال من حوله والجحود والفجور؛ ولكنه سعى بالحق الذي استقر في ضميره وتحرك في شعوره، سعى به إلى قومه وهم يكذبون ويجهلون ويتوعدون ويهددون. وجاء من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق، وفي كفهم عن البغي، وفي مقاومة اعتدائهم الأثيم الذي يوشكون أن يصبوه على المرسلين. وألقى بكلمة الإيمان الواثقة المطمئنة وأشهد المرسلين عليها ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾.

وكانت الشهادة لهذا الرجل الذي جهر بكلمة الحق، وقذف بها في وجوه من يملكون التهديد والتنكيل.

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾.

هل رأيتم داعياً بعد رحيله عن الدنيا يتمنى لو يرى قومه ما هو فيه من الرضى والكرامة، ليعرفوا الحق ويثوبوا إليه.

* مؤمن آل فرعون وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وكلماته الخالدة

في ضمير الزمان:

ما أجمل هذه السورة «غافر» وهي تسجل المواقف العظيمة لكليم الله موسى عليه السلام وتبجح فرعون وسخريته وكلماته الفاجرة وحججه الواهية.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ﴾.

وهي بعينها كلمة كل طاغية مستبد عن كل داعية مصلح، هي بعينها

كلمة الباطل الكالِح في وجه الإيمان الهادئ، منطق واحد يتكرر كلما التقى الحق والباطل، والإيمان والكفر، والصلاح والطغيان على توالي الزمان واختلاف المكان ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ .

□ هنا انتدب رجل من آل فرعون، وقع الحق في قلبه، ولكنه كتم إيمانه، انتدب يدفع عن موسى، ويحتال لدفع القوم عنه، ويسلك في خطابه لفرعون وملئه مسالك شتى، ويتدسس إلى قلوبهم بالنصيحة ويثير حساسيتها بالتخويف والإقناع:

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَبْصُرْنَا مِنْ بِأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ (٢٩) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾ (٣٠) مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِلْعِبَادِ ﴾ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ (٣٢) يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زُلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴾ (٣٤) الَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبِيرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٢٨-٣٥].

إنها جولة ضخمة هذه التي جالها الرجل المؤمن مع فرعون وملئه. وإنه

منطق الفطرة المؤمنة في حذر ومهارة وقوة كذلك إنه يبدأ بتفطيع ما هم مقدمون عليه ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ . . فهل هذه الكلمة البريئة المتعلقة باعتقاد قلب، واقتناع نفس، تستحق القتل، ويرد عليها بإزهاق روح؟ إنها في هذه الصورة فعلة منكرا بشعة ظاهرة القبح والبشاعة .

□ ثم يخطو بهم خطوة أخرى، فالذي يقول هذه الكلمة البريئة ﴿ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ . . يقولها ومعه حجته وفي يده برهانه ﴿ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ وهم - فيما بينهم وبعيداً عن الجماهير - يصعب أن يماروا فيها!
□ ثم يفرض لهم أسوأ الفروض ﴿ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ﴾ وهو يحمل تبعه عمله، ويلقى جزاءه ويحتمل جريرته، وليس هذا بمسوخ لهم أن يقتلوه على أية حال!

وهناك الاحتمال الآخر، وهو أن يكون صادقاً، فيحسن الاحتياط لهذا الاحتمال وعدم التعرض لنتائجه ﴿ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ وهذا منتهى الإنصاف في الجدل والإفحام .

□ ثم يهددهم من طرف خفي ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ .

□ وحين يصل بهم إلى فعل الله بمن هو مسرف كذاب، يهجم عليهم مخوفاً بعذاب الله، محذراً من بأسه الذي لا ينجيهم منه ما هم فيه من ملك وسلطان .

﴿ يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَبْصُرْنَا مِنْ بِأَسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ﴾ .

إن الرجل يشعر بما يشعر به القلب المؤمن، من أن بأس الله أقرب ما يكون لأصحاب الملك والسلطان في الأرض، فهم أحق الناس أن يحذروه،

وأجدر الناس أن يحسوه ويتقوه، وأن يبيتوا منه على وجل، فهو يتربص بهم في كل لحظة ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ ليشعرهم أن بأس الله إن جاء فلا ناصر منه ولا مجير، وأنهم إزاءه ضعاف ضعاف.

هنا يأخذ فرعون ما يأخذ كل طاغية توجه إليه النصيحة.. تأخذ العزة بالإثم، ويرى في النصيح الخالص افتياتاً على سلطانه، ونقصاً من نفوذه، ومشاركة في النفوذ والسلطان ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ إنني لا أقول لكم إلا ما أراه صواباً وإنه لهو الصواب والرشد والخير لا شك ولا جدال! وهل يسمح الطغاة بأن يظن أحد أنهم مخطئون؟! وهل يجوز لأحد أن يرى إلى جوار رأيهم رأياً؟! وإلا فلم كانوا طغاة!؟

ولكن الرجل المؤمن يجد من إيمانه غير هذا؛ ويجد أن عليه واجباً أن يحذر وينصح ويبيد من الرأي ما يراه.. ويرى من الواجب عليه أن يقف إلى جوار الحق الذي يعتقده كائناً ما كان رأي الطغاة.

ثم هو يطرق قلوبهم بإيقاع آخر لعلها تحس وتستيقظ وترتعش وتلين.. يطرق قلوبهم بلفتها على مصارع الأحزاب قبلهم وهي شاهدة ببأس الله في أخذ المكذبين والطغاة.

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾.

ولكل حزب كان يوم، ولكن الرجل المؤمن يجمعها في يوم واحد ﴿مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ فهو اليوم الذي يتجلى فيه بأس الله، وهو يوم واحد في طبيعته على تفرق الأحزاب.

□ ثم يذكرهم بيوم القيامة يوم التناد.

﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُؤَلَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِّنْ

اللَّهُ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٤﴾ .

وفي ذلك اليوم ينادي الملائكة الذين يحشرون الناس للموقف، وينادي أصحاب الأعراف على أصحاب الجنة وأصحاب النار، وينادي أصحاب الجنة أصحاب النار، وأصحاب النار أصحاب الجنة، فالتنادي واقع في صور شتى، وتسميته «يوم التناد» تلقي عليه ظل التصايح وتناوح الأصوات من هنا ومن هناك، وتصوّر يوم زحام وخصام وتتفق كذلك مع قول الرجل المؤمن ﴿يَوْمَ تُولُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴿٤﴾ .

وقد يكون ذلك فرارهم عند هول جهنم، أو محاولتهم الفرار، ولا عاصم يومئذ ولات حين فرار.

﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٤﴾ لعلّ فيها إشارة خفية إلى قول فرعون: ﴿وَمَا أهدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٤٠﴾ . . . وتلميحا بأن الهدى هدى الله، وأن من أضله الله فلا هادي له .

□ وينذرهم بإضلال الله الذي ينتظر كل مسرف مرتاب في عقيدته وقد جاءته معها البينات ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٤٠﴾ .

ثم يشتد في مواجعتهم بمقت الله ومقت المؤمنين لمن يجادل في آيات الله بغير حجة ولا برهان، وهم يفعلون هذا في أشع صورة ويندد بالتكبر والتجبر، وينذر بطمس الله لقلوب المتكبرين المتجبرين!

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٤١﴾ .

□ وعلى الرغم من هذه الجولة الضخمة التي أخذ الرجل المؤمن قلوبهم بها؛ فقد ظل فرعون على ضلاله، مُصِرًّا على التَّنَكُّرَ للحق .

وأمام مراوغتهم واستهتارهم، ألقى الرجل المؤمن كلمته الأخيرة مدوية

صريحة بعد ما دعا القوم إلى اتباعه في الطريق إلى الله، وهو طريق الرشاد، وكشف لهم عن قيمة هذه الحياة الزائلة، وشوقهم إلى نعيم الحياة الباقية، وحذّره عذاب الآخرة، وبين لهم ما في عقيدة الشرك من زيف ومن بطلان: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٢٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أُنتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٠﴾

إنه يقول في مواجهة فرعون ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ وقد كان فرعون منذ لحظات يقول: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ فهو التحدي الصريح الواضح بكلمة الحق لا يخشى فيها سلطان فرعون الجبار ولا ملأه المتآمرين معه من أمثال هامان وقارون.

□ ويستنكر الرجل المؤمن أن يدعوهم إلى النجاة فيدعونه إلى النار، فيهتف بهم في استنكار ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ وهم لم يدعوه إلى النار، إنما دعوه إلى الشرك، وما الفرق بين الدعوة إلى الشرك والدعوة إلى النار؟ إنها قريب من قريب. فهو يبدل الدعوة بالدعوة في تعبيره في الآية التالية ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾.

□ وشتان بين دعوة ودعوة، إن دعوته لهم واضحة مستقيمة. إنه يدعوهم إلى العزيز الغفار. يدعوهم إلى إله واحد تشهد آثاره في الوجود بوحدانيته، وتنطق بدائع صنعته بقدرته وتقديره. يدعوهم إليه ليغفر لهم وهو القادر على أن يغفر فإلى أي شيء يدعوهم؟ يدعوهم للكفر بالله على طريق إشراك ما لا علم له به من مدعيات وأوهام وألغاز!

□ ويقرر من غير شك ولا ريب أن هؤلاء الشركاء ليس لهم في الأمر

شيء، وليس لهم شأن لا في دنيا ولا في آخرة، وأن المرد لله وحده،
والمسرفين المتجاوزين للحد في الادعاء سيكونون أهل النار: ﴿لَا جَرَمَ لَنَا
تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدْنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ
الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

وماذا يبقى بعد هذا البيان الواضح الشامل للحقائق الرئيسية في
العقيدة؟ وقد جهر بها الرجل في مواجهة فرعون وملئه بلا تردد ولا تعلش،
بعدما كان يكتنم إيمانه، فأعلن عنه هذا الإعلان؟ لا يبقى إلا أن يفوض أمره
إلى الله، وقد قال كلمته وأراح ضميره، مهدداً إياهم بأنهم سيذكرون كلمته
هذه في موقف لا تنفع فيه الذكرى والأمر كله إلى الله.

﴿فَسْتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾
ويتهيء الجدل والحوار. وقد سجل مؤمن آل فرعون كلمة الحق خالدة في
ضمير الزمان.

* قال تعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكُرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ
الْعَذَابِ﴾.

* سحرة فرعون.. في أول النهار سحرة وفي آخر النهار شهداء بيرة
قالوا كلمة الحق عند أكبر طاغية إعلاناً لحرية القلب المؤمن:

* قال تعالى عن موقف السحرة في بداية أمرهم ثم ما آل إليه أمرهم:
﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ (٦٠) قَالَ لَهُم مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ
كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى﴾ (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا
النَّجْوَى﴾ (٦٢) قَالُوا إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا
وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى﴾ (٦٣) فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَن

اسْتَعْلَى ﴿٦٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ
 أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي
 نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾ وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ
 تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٦٩﴾ فَأَلْقَى
 السِّحْرَةَ سَجْدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى ﴿٧٠﴾ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدْنَ لَكُمْ
 إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا أَصْلَبَنَّكُمْ
 فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧١﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَيْنَا مَا جَاءَنَا
 مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا
 آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿طه: ٦٠-٦١﴾

. [٧٣]

﴿فَأَلْقَى السِّحْرَةَ سَجْدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى﴾ .

إنها اللمسة تصادف العصب الحساس فينتفض الجسم كله، وينبعث
 النور ويشرق الظلام، إنها لمسة الإيمان للقلب البشري تحوله في لحظة من
 الكفر إلى الإيمان .

ولكن أنى للظغاة أن يدركوا هذا السر اللطيف؟ أنى لهم أن يدركوا
 كيف تتقلب القلوب؟ وهم قد نسوا لطول ما طغوا وبعغوا، ورأوا الأتباع
 ينقادون لإشارة منهم، نسوا أن الله هو مقلب القلوب؛ وأنها حين تتصل به
 وتستمد منه وتشرق بنوره لا يكون لأحد عليها سلطان .

﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدْنَ لَكُمْ﴾ . . . قولة الطاغية الذي لا يدرك أنهم

هم أنفسهم لا يملكون - وقد لمس الإيمان قلوبهم - أن يدفعوه عنها، والقلب
 بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء .

﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ .

فذلك سر الاستسلام في نظره، لا أنه الإيمان الذي دب في قلوبهم ولا أنها يد الرحمن تكشف عن بصائرهم غشاوة الضلال.

ثم التهديد الغليظ بالعذاب الغليظ الذي يعتمد عليه الطغاة، ويسلطونه على الجسوم والأبدان حين يعجزون عن قهر القلوب والأرواح ﴿ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ .

ثم الاستعلاء بالقوة العاشمة، قوة الوحوش في الغابة، القوة التي تمزق الأحشاء والأوصال، ولا تفرق بين إنسان يقرع بالحجة وحيوان يقرع بالناب: ﴿ وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ .

ولكنه كان قد فات الأوان. كانت اللمسة الإيمانية قد وصلت. فإذا هي قوية قويمه، وإذا القوى الأرضية كلها ضئيلة ضئيلة، وإذا الحياة الأرضية كلها زهيدة زهيدة، وكانت قد تفتحت لهذه القلوب آفاق مشرقة وضيئة لا تبالي أن ينظر بعدها إلى الأرض وما بها من عرض زائل، ولا إلى حياة الأرض وما فيها من متاع تافه.

□ قال ابن كثير: «قال ابن عباس رضي الله عنهما وعبيد بن عمير: كانوا أول النهار سحرة وفي آخر النهار شهداء برة».

□ وقال محمد بن كعب: كانوا ثمانين ألفاً، وقال محمد بن إسحاق: كانوا خمسة عشرة ألفاً، وقال الأوزاعي: لما خر السحرة سجداً رفعت لهم الجنة حتى نظروا إليها، وعن سعيد بن جبير في قوله: ﴿ فَأَلْقِي السُّحْرَةَ سُجَّداً ﴾ قال: رأوا منازلهم تبين لهم وهم في سجودهم، وكذا قال عكرمة والقاسم ابن أبي بزة.

﴿ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾

أي: لأجعلنكم مثلة ولأقتلنكم ولأشهرنكم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: فكان أول من فعل ذلك. رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ أي: أنتم تقولون إني وقومي على ضلالة وأنتم مع موسى وقومه على الهدى فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه، فلما صال عليهم بذلك وتوعدهم هانت عليهم أنفسهم في الله عز وجل.

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَيَّ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

أي: لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين، ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ يحتمل أن يكون قسماً ويحتمل أن يكون معطوفاً على البيئات، يعنون لا نختارك على فاطرنا وخالقنا الذي أنشأنا من العدم المبتدي خلقنا من الطين فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت، ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ أي: فافعل ما شئت وما وصلت إليه يدك، ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: إنما لك أن تسلط في هذه الدار وهي دار الزوال ونحن قد رغبتنا في دار القرار، ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أي: خير لنا منك وأدوم ثواباً مما كنت وعدتنا وميئتنا وهو رواية عن ابن إسحاق - رحمه الله - وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ﴾ أي: لنا منك إن أطيع، ﴿وَأَبْقَى﴾ أي: منك عذاباً إن عصي - اهـ.

إنها لمسة الإيمان في القلوب التي كانت منذ لحظة تعنو لفرعون وتعدّ القريبى منه مغنماً يتسابق إليه المتسابقون، فإذا هي بعد لحظة تواجهه في قوة، وترخص ملكه وزخرفته وجاهه وسلطانه.

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَيَّ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ فهي أعزّ وأعلى

وهو جلّ شأنه أكبر وأعلى، ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ ودونك وما تملكه لنا في الأرض، ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ فسلطانك مقيد بها، ومالك من سلطان علينا في غيرها، وما أقصر الحياة الدنيا، وما أهون الحياة الدنيا، وما تملكه لنا من عذاب أيسر من أن يخشاه قلب يتصل بالله، ويأمل في الحياة الخالدة أبداً. ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾. ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ خير قسمة وجواراً، وأبقى مغنماً وجواراً، إن كنت تهددنا بمن هو أشد وأبقى.

* قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا

يَحْيَىٰ﴾ (٧٤) ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ (٧٥) ﴿جَنَّاتٍ عِدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾.

□ قال الحافظ ابن كثير: «الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به

السحرة لفرعون يحذرونه من نقمة الله وعذابه الدائم السرمدي ويرغبونه في ثوابه الأبدي المخلد».

«ألهم السحرة الذين آمنوا بربهم أن يقفوا من الطاغية موقف المعلم

المستعلي. فإذا كان يتهددهم بمن هو أشد وأبقى، فما هي ذي صورة لمن يأتي ربه مجرمًا هي أشد عذابًا وأدوم ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ فلا هو ميت فيستريح، ولا هو حي فيتمتع، إنما هو العذاب الذي لا ينتهي إلى موت ولا ينتهي إلى حياة.. وفي الجانب الآخر الدرجات العلى جنات للإقامة ندية بما يجري تحت غرفاتها من أنهار ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾، وتطهر من الآثام.

□ وانظر إلى سورة أخرى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَا لِأَجْرًا

إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ (٤١) ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقْرَبِينَ﴾.

يطمئنون على الأجر والمكافأة إن كانوا هم الغالين ويتلقون من فرعون

الوعد بالأجر الجزيل والقربى من عرشه الكريم!.

جماعة مأجورة يستعين بها فرعون الطاغية، تبذل مهارتها في مقابل الأجر الذي تنتظره، ولا علاقة لها بعقيدة ولا صلة لها بقضية، ولا شيء سوى الأجر والمصلحة.

وها هم أولاء يستوثقون من الجزاء على تعبهم ولعبهم وبراعتهم في الخداع، وها هو فرعون يعدهم بما هو أكثر من الأجر، يعدهم أن يكونوا من المقربين إليه، وهو بزعمه الملك والإله ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ يجعلون قسمهم الأعلى بعزة فرعون.

وفي نهاية الأمر سجدوا لرب موسى وهارون وهم قد كانوا منذ لحظة مأجورين ينتظرون الجزاء من فرعون على مهارتهم، ولم يكونوا أصحاب عقيدة ولا قضية، ولكن الحق الذي مس قلوبهم قد حولهم تحويلاً، لقد كانت هزة رجتهم رجاً، ووصلت إلى أعماق نفوسهم وقرارة قلوبهم، فأزالت عنها ركام الضلال، وجعلتها صافية حية خاشعة للحق، عامرة بالإيمان، في لحظات قصار.

كلمة لفرعون الطاغية تقابلها كلمة مؤمنة: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَأَصْلَبَنِيكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

إنها الحماسة التي يرتكبها كل طاغية، حينما يحس بالخطر على عرشه أو شخصه، يرتكبها في عنف وغلظة وبشاعة، بلا تحرج من قلب أو ضمير.. إنها كلمة فرعون الطاغية المتجبر الذي يملك تنفيذ ما يقول فما تكون كلمة الفئة المؤمنة التي رأت النور!

إنها كلمة القلب الذي وجد الله فلم يعد يحفل ما يفقد بعد هذا الوجدان. القلب الذي اتصل بالله فذاق طعم العزة فلم يعد يحفل

بالطغيان.. القلب الذي يرجو الآخرة فلا يهتم من أمر هذه الدنيا قليل ولا كثير: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

لا ضير.. لا ضير في تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، لا ضير في التصليب والعذاب، لا ضير في الموت والاستشهاد.. لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون..

يا لله! يا لروعة الإيمان إذ يُشرق في الضمائر وإذ يفيض على الأرواح، وإذ يسكب الطمأنينة في النفوس وإذ يرتفع بسلالة الطين إلى أعلى عليين، وإذ يملأ القلوب بالغنى والذخر، فإذا كل ما في الأرض تافه حقير زهيد.. روعة غامرة ومشهد له جلاله الباهر وإيقاعة العميق.. وهو يربي النفوس حين تواجه الأذى والكرب والضيق ويربي به كل صاحب عقيدة يواجه بها الطغيان والعسف والتعذيب.

وفي سورة أخرى ماذا قال السحرة: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نَنصِفُ مَا إِلَّا أَنْ أَمَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾. أسلموا لله وحده، وأعلنوا الخروج من العبودية الزائفة للطاغوت المعتصب للربوبية واختصاصاتها. كانوا يعلمون حقيقة المعركة بينهم وبين الطاغوت، إنها المعركة على العقيدة؛ لأن هذه العقيدة تهدد سلطان الطواغيت بمجرد إعلان أصحابها أن عبوديتهم خالصة لرب العالمين.. بل بمجرد إعلان أن الله رب العالمين! ومن ثم قالوا لفرعون رداً على اتهامه لهم: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، فلدجأوا إلى ربهم ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ فكان هذا فرقاناً جعله الله في قلوبهم حين استقرت حقيقة الإسلام لله فيها.

□ هزأت القلوب المؤمنة بتهديد الطغيان الجائر، وواجهته بكلمة الإيمان القوية، وباستعلاء الإيمان الواثق، وبتحذير الإيمان الناصع وبرجاء الإيمان العميق.

«ومضى هذا المشهد في تاريخ البشرية إعلاناً لحرية القلب البشري باستعلائه على قيود الأرض وسلطان الأرض، وعلى الطمع، في المثوبة والخوف من السلطان، وما يملك القلب البشري أن يجهر بهذا الإعلان القوي إلا في ظلال الإيمان.

وهكذا ينتصر الحق والإيمان في واقع الحياة المشهود، بعد انتصارهما في عالم الفكرة والعقيدة:

انتصار آية العصا على السحر، وانتصار العقيدة في قلوب السحرة على الاحتراف؛ وانتصار الإيمان في قلوبهم على الرغب والرهب، والتهديد والوعيد. فالآن ينتصر الحق على الباطل، والهدى على الضلال، والإيمان على الطغيان في الواقع المشهود، والنصر الأخير مرتبط بالنصر الأول، فما يتحقق النصر في عالم الواقع إلا بعد تمامه في عالم الضمير، وما يستعلي أصحاب الحق في الظاهر إلا بعد أن يستعلوا بالحق في الباطن. . إن للحق والإيمان حقيقة متى تجسّمت في المشاعر أخذت طريقها فاستعلنت ليراها الناس في صورتها الواقعية. فأما إذا ظلّ الإيمان مظهرًا لم يتجسّم في القلب، والحق شعارًا لا ينبع من الضمير، فإن الطغيان والباطل قد يغلبان؛ لأنهما يملكان قوة مادية حقيقية لا مقابل لها ولا كفاء في مظهر الحق والإيمان. . يجب أن تتحقّق حقيقة الإيمان في النفس وحقيقة الحق في القلب؛ فتصبحا أقوى من حقيقة القوى المادية التي يستعلي بها الباطل ويصول بها الطغيان. . وهذا هو الذي كان في موقف موسى - عليه السلام - من السحر والسحرة. وفي موقف السحرة من فرعون وملئه، ومن ثم انتصر الحق في الأرض».